

الآداب في سبر أعينهم :

## ملتين . . .

[ الفيتارة الخالصة التي غنت أروع  
أناشيد الجمال والحرية والخيال . . . ]

للأستاذ محمود الخفيف

- ٣٣ -

البطل الضرب :

أدت نظرة ملتين إلى المرأة أنها دون الرجل منزلة وعقلا إلى إهمال منه معيب في تعليم بناته فكبرن وحظهن من الثقافة قليل ، وكن لا يعرفن إلا لغتهن إذ رفض أبوهن أن يعلمهن لغة غيرها . وكان يقول في ذلك ساخراً « حسب المرأة لسان واحد » ؛ وكان أبوهن في شغل عنهن أكثر الأوقات بكتيباته وخصوماته وأعباء منصبه فكان يترك أمورهن للخديم . والحق أن ملتين كان متخلفاً عن عصره في النظر إلى تعليم البنات ولذلك لم يشابع كومننس حين كتب هو عن التعليم رسالته التي سلفت الإشارة إليها إذ كان كومننس يذهب مذهب أفلاطون في المساواة بين البنين والبنات ، وكان لا يعنى ملتين إلا بالبنين ، وعنده أن من العبث تعليم البنات كما تعلم الكائنات العاقلة على حد تعبيره .

وأملت عليه ييورياننيت أنه يحيط ببناته بشيء من الخشونة فلم يتمتع البنات إلا قليلا ، فأحسن استبداده بهن وإن لم يشعرن منه بفظاظة أو فظاظة ، وزاد إحساسهن شدة حرمانهن من أمهن ، فقر في نفوسهن شيء يشبه أن يكون جفاء منهن لأبيهن .

ولما عاد ملتين إلى الشعر وأراد أن يرجع إلى الكتب التي تتصل بموضوعه ، كان يقرأ له ويكتب رجل استأجره لذلك ، ولكنه كان لا يعرف غير الإنجليزية حتى لقد شكى ملتين في كتاب إلى صديقه أنه كثيراً ما يتضجر ويضيق بهذا الكاتب الذي يضطره إلى أن يذكر له هجاء كل عبارة لا يتبينه عليها

عليه كلمة كلمة ، وكان يقرأ له أحياناً بعض الشباب ممن تنافسوا في الخطوة بهذا الشرف ومن طلبوا الفائدة من القراءة له ، كما كان يرسل بعض أصدقائه أبناءهم ليحفظوا عنده بالقراءة أو الكتابة له وليقوموا بذلك ألسنتهم وليفيدوا عرفانا وبياناً .

ولكنه كان لا يضمن مجيء هؤلاء إليه كل حين ، وعلى ذلك فقد عول على تعليم بناته النطق باللغات المختلفة وهن لا يفهمن شيئاً مما تتحرك به ألسنتهن وبذل في ذلك جهداً كبيراً وهو على حاله من المرض والعمى ؛ وإنه لعجب أن يحرص هذا الحرص كله على المعرفة فلا يقعد عن وسيلة مهما بلغ من عمرها وإنها لحالة تملأ النفس أسى على ما مسه من ضرر بقدر ما تملؤها إعجاباً بمزيمته التي لا تعرف كاللاً ولا ساماً . ولا ريب أنه كان يستشعر كثيراً من المرارة والحزن في تلك اللحظات التي لا يجد فيها من يقرأ له أو يكتب ما نظم من الشعر ، ولم يك له عزاء في هذا البلاء إلا استغراقه في قصيدته الكبرى وإقباله عليها بكل جوارحه وارتياح نفسه إلى أن يحقق أملاً طالما طاف بخياله وأثلج فؤاده وأبهج نفسه .

وكان يدعو بناته ليقرأن له ما يطلب من الكتب اللاتينية والعبرية والأغريقية والفرنسية واليطالية والأسبانية ، فينطقن نطقاً آلياً بمبارات لا يفهمن منها بالضرورة شيئاً ؛ وكن يضمن بهذا ويتبرمن به ويتضجرن منه ، وحق لمن أن يكرهن هذا العمل كرهاً شديداً ، فإذا دعاهن أبوهن إليه أقبلن متاقلات متكرهات ، ثم اعتذرت كبراهن بما في لسانها من حصر لا تحسن منه النطق فأعفاها أبوها من القراءة وجعلها للكتابة فوق عتبة القراءة على الوسطى فازدادت بذلك ضيقاً وضجراً . وما زال يشتد ضجر ماري وهي الوسطى حتى أصبح تمرداً وعصياناً فصارت تهمل ما يطلب إليها أبوها متفاولة أو متناسية .

وكانت تعرض عنه أحياناً ساخطة ناقة ؛ وصبرت دُبراً وهي الصغرى بعض الصبر ، ولكنها ما لبثت أن تكرهت لأبيها وخشيت عليه وما برحت تشكو لأختها أنه يدعوها في أي ساعة من ساعات الليل فيوقظها وهي مستغرقة في نومها لتكتب بضعة أسطر نظمها .

ولست هذه المقطوعات من نقاية الشعر كما قد يخيل إلى المرء فإن لها لساناً جليلاً في ذاتها ومنزلة سامية في تاريخ هذا النوع الذي نسميه المقطوعات ، ولذلك نرى أنه يجدر بنا أن نتكلم عنها ونبين مبلغ ما لها من خطر في الشعر الإنجليزي قبل أن نتكلم عن الفردوس المفقود وما جاء بعدها .

جاء ملتن من هذه المقطوعات بما لم ينته فيه كثير من أفذاذ هذا الضرب من النظم منتهاء ، ولقد قلّ فيه أكفاؤه وذوّه له فيه صيت عظيم جملة نداء لشكسبير في هذا الباب على قلة ما نظم منه بالقياس إلى شكسبير إن لم يك يبرعه في أكثر من ناحية من نواحيه . ولقد أصبح فيه مثالا لمن جاء بعده فاحتذى حذوه وأعجب به وردنورث وكتيس وغيرهما من شعراء القرن التاسع عشر . ولا بد لنا من كلمة في أصل هذه المقطوعات ونشأتها لا في شعر ملتن وحده ولا في الشعر الإنجليزي وحده وتبكن في الشعر الأوروبي بوجه عام ثم نمط الكلام بعد على مبلغ ما توافى للمتن فيها من براعة وتبريز .

لم يقطع نقدة الأدب الأوروبي برأى في نشأة المقطوعات<sup>(١)</sup> وتسميتها بهذا الاسم الذي سموها به ؛ ويرى بعضهم أن الإيطاليين هم مبتدعوها ، وأن اسمها يرجع إلى لفظ إيطالي معناه اللحن الصغير أو الصوت الصغير<sup>(٢)</sup> وهو لحن كان يغنى على عود أو قيثارة . ويرى فريق آخر أن منبها كان في فرنسا في مقاطعة بروفانس وأن اسمها نجم من تلك الكلمة الفرنسية التي تطلق على الجرس الصغير<sup>(٣)</sup> أو جرس الفئات . ويذهب البعض إلى أن أصلها أغريق وأن الأغريق اختاروا لها لحنها ووضمها للفن بعد أن مرت على عدة أطوار من الخلق والابتكار . ولأحد النقدة وهو وليم شارپ رأى غير هذه جميعاً فهو يردّها إلى أغاني الرعاة في صقلية وجنوبي إيطاليا ويرى أنها انتهت إلى وضعها المعروف بعد أطوار مختلفة ، ويرد اسمها إلى الاسم الذي كان يطلق في هاتيك الجهات على أغنيات الفلاحين والرعاة<sup>(٤)</sup> على وجه العموم .

(١) Sonnets : وقد اخترنا لها لفظ المقطوعات في العربية ، وإن كان لا يؤدي اللحن الفني لها ، ولكن على أي حال خير من تسميتها بالأغنيات  
(٢) Sonnetto (٣) Sonnette (٤) Stormello

وتفانم الأمر فكره البنات أباهن حتى ما يطقنه ؛ قالت الوسطى مرة وقد سمعت أنه يزعم أن يتزوج « ليس في الحديث عن زواجه ما يعد جديداً من الأنباء أما أن اسمع بموته ففي ذلك ما يؤبه له » .

وتأسر البنات مع إحدى الخدم على غشه فيها يشتري ويبيع مما يحتاج النزل إليه ، وفعلن أقبح من ذلك فأعنى الخدم على بيع كتبه بغير علمه فإذا علم بشئ من هذا مس الحزن قلبه مس شديداً ولكنه يكظم غيظه ويكتم أمره عن الصجب والجيرة مخافة المار ، وكم كان وقع ذلك ألماً على نفس كبيرة مثل نفسه ، وكم كان يشعر ذلك بما آل إليه حاله من استكانة بعد عزة ، ويذكره هذا الضر الذي أحاطه بالظلمة فجعل من بناته عدوات له . ولكن روحه قوية على الرغم من هذا كله ، وإقباله على قصيدته واستشرافه لآفاقها الفسيحة العليا يدفع عن نفسه القنوط إذ يرفها من عالم صغير حقير إلى ملكوت لا يدرك جلاله وعظمته إلا عقل مثل عقله وروح مثل روحه . ولقد كان له في الشعر أعظم الغزاء وأطيبه وإن كان يعمد أحياناً إلى قيثارته فتختلج أوتارها بين يديه بلحن يسرى به عن نفسه أو يعي به جوأ ملائماً لما تجيش به نفسه من شعر .

### عود إلى الشعر :

انقطع ملتن عن الشعر منذ سنة ١٦٤١ كما سلف القول ، ولم يكده يعود إليه سنة ١٦٥٨ حتى انشغل عنه بما كتب في عهد ريتشارد وقبيل عودة الملكية . ثم أقبل عليه إقبالاً غير منقطع منذ أن نجما بحياته في أواخر سنة ١٦٦٠ ؛ ومن ذلك نرى أنه انصرف عن الشعر قرابة عشرين سنة وهي مدة طويلة لم يقضها في تأمل وهدوء وتهيؤ على نحو ما كان يفعل في هورتون ، وإنما كانت حياته فيها كما رأينا مليئة بالأحداث حافلة بالخصومات ، ولكنه أفاد خبرة عظيمة وتم نضجه فأصبح كالشجرة المحملة بالثمرات تجود بأطيبها لأقل هزة ...

ولم تخل هذه السنوات المشروقة من الشعر خلواً تاماً فقد نظم الشاعر أثناءها بعض المقطوعات في مناسبات مختلفة ،

التعبير القوى الجليل هو من قبيل ما يجب أن تبني منه المقطوعات القوية أو التي تنسم بالنجاح ؛ ومن هذا ندرك أنها عمل فني يتطلب قدراً كبيراً من البراعة الفنية والطاقة الشعرية ، وحسب الشاعر أنه يقيم تمثالا في لحظة وإن يكون التمثال جديراً باسمه وبالغرض منه إلا إذا حلتك على الإعجاب به والشعور تلقاء بما تشعر به تلقاء كل عمل فني من روعة الفن وجلاله .

والمقطوعة ضرب من الشعر الثنائي ، ولكنها تختلف عن القصيدة الثنائية الصغيرة بما ينبغي أن يلقى الشاعر على غنائها من الوقار والاحتشام فلا يتبدل ولا يسف ولا يتلاعب بالألفاظ والأسجاع والوان التورية وأشباهاها مما يستلزم في القصيدة العادية ولا يجوز هنا ، حيث ينبغي التأمل والتسامي كي يأتي التمثال مبرراً عما يراد به التعبير عنه ، وما مقام التماثيل إلا للجليل من الأشخاص والأفكار .

وقد شبه أحد النقاد لحن المقطوعة بالموجة إذ يتدفق ويتجمع ماؤها فتعج به وترفع ثم تهبط فتتساح ويرتد الماء ليمود ثانية إلى البحر ، والمقصود من هذا التشبيه أن المقطوعة وحدة غنائية مترمة الصورة واللحن فلا حرية فيها للشاعر أن يجري ألقانه كيفما شاء وأن يتظرف ويتخلع وينطلق حسبما يتجبه خياله ومزاجه وهواه .

وظهرت المقطوعة أول ما ظهرت في الإنجليزية في ثانيا كتاب نشره أحد رجال الأدب واسمه تيل سنة ١٥٥٧ تحت عنوان « خليط من الأغاني والمقطوعات » ولما كانت مقطوعات كثيرة منها غفلا من أسماء أصحابها فليس يدري من الرائد في هذا الضرب من النظم في الإنجليزية ، على أن الإنجليز لم يقيموا ما وضعه الإيطاليون ، فقد تصرفوا فيه وأتوا بصورة جديدة للمقطوعة وإن بقي عدد أسطرها كما هو في المقطوعة الإيطالية ، وجاءت الصورة الإنجليزية أيسر بناء من الصورة الإيطالية كما يتبين من طريقة التقفية فيها<sup>(١)</sup> ، وليس يشترط فيها أن يكون هناك تغير بين صدرها وخاتمها وإن كان الغالب أن يحدث هذا التغير كما هو واضح من المثال الذي أتيته في ذيل الصفحة ؛

(١) جملها على هذا النحو ( ا ب ا ب ج د ج د ه ه و و ز ز ) .

وكان أول ما ظهرت تلك المقطوعات في صورتها ولحنها الخاصين بها في الأدب الإيطالي في القرن الثالث عشر في شعر شاعرين هما : بيير دل ريشي وجيو تودارزو ؛ وكذلك كان أول من طرق هذا الضرب من النظم من كبار الشعراء من الإيطاليين فقد تغنى دانتى في أواخر القرن الثالث عشر بحبيبة قلبه بياتريس فآخذ لغنائها عدداً من هاتيك الألحان ، وكذلك أفصح برتراك في أوائل القرن الرابع عشر عما ينبض به قلبه من حب لمشوقته لورا بعدد من تلك الأصوات الصغيرة التي سميناها المقطوعات . أما عن الصورة أو الوضع الذي انتهت إليه المقطوعة في الأدب الإيطالي فلها لم تك تزيد على أربعة عشر سطراً . ثمانية منها تكون من حيث النظم والموضوع فآخرة المقطوعة أو صدرها ، وتكون الستة الباقية خاتمها أو « قفلها » ، ولا بد في الفآخرة أن تجري قوافيها على وضع معين ، فالقافية في السطر الأول مشكلة لها في الرابع وبينهما الثاني والثالث متحدة قافيتهما ولكنها متباينة لما بدأت به المقطوعة ، ثم يكرر هذا الوضع حتى تم الأسطر الثمانية<sup>(٢)</sup> بعد ذلك وتغير القافية في الأسطر الستة التي تكون الخاتمة على أساس أن تكون ثلاثها الأولى مشكلة لثلاثها الثانية<sup>(٣)</sup> .

وأما عن موضوع المقطوعة فهي كما يفهم من حجمها يقصد بها التعبير عن معنى من المعاني تجيش به النفس في مناسبة من المناسبات ، أو هي تسجيل لخاطر يخطر للقلب في غير استطراد يخرج به عن أن يكون خاطراً هو ابن لحظته أو ابن مناسبتة ؛ ويقول في ذلك ولیم شارب إن المقطوعة « هي خير وسيلة للتعبير عن خاطر شعري بمنزل عن غيره تعبيراً موجزاً محدوداً » ؛ وتقضى طبيعتها أو يقتضى النجاح فيها أن يكون التعبير قوياً رائماً يجمع إلى عمق الفكرة وجمالها بلاغة اللفظ وإشراقه ، كل أولئك في إيجاز لا يخل بالمعنى المراد . وما أجل ما وصف به روزن المقطوعة وهو من الشعراء الذين أحبوا وبرعوا فيها في القرن التاسع عشر ، قال « إن المقطوعة هي تمثال لحظة » وهذا

(١) تكون على هذا النحو إذا رمزنا للقافية بحروف ( ا ب ب ا ب ا )

(٢) ( ج د ه ج د ه )